

قنديل العرافات

جدع امرأة.

من حَلْمَة الثدي تنسل يمامة تضلّل الرياح بمراوغاتها الرشيقة وتُسَوّر مقصورات النهار
بابتهالات مترعة بأنين خافت لا يسمعه غير الصياد الشرة الذي يكمن خلف دغل مُرْسِيلاً
نظراته إلى أعلى، يرصد ظلاً مُحَلِّقاً (لا يبتغي الظل بل يشتهي البدن) ويصيخ لرفيفه.
يصطخب في الرأس فحسب.

فِيخاخ تطوّق الضفة، ثواري ذؤابتها تحث أجسامت، متأهبة للانقضاض.. وحين تياس
ترجل، زاحفة، تجاه مكمن آخر في الحقل أو قرب مخزن للقش. والمامة تحتمي بهاليز السماء
وتركّض من دَرَب الى دَرَب، وأن تحدق إلى أسفل ترى مجرة، فتستل من جناحها أقحوانة
وترميها.

إنها الأرض تُذْرِف مجرة لأنفاسها رائحة طين مطعون بالدم. لماذا ساحات الفقراء لا
تترين سوى بجث أنبائها؟ وحدها يغناها النصل بقتة. عند العَتَيّة نوتّي مشروخ الرأس
بمجداف. بخار يتصاعد مشخناً بالعويل ويوشك أن يعتصم بغيمة لكنها تُفَرّ مذعورة إذ للبخار
هيئة عنكبوت هائل أو هو تابوت ورثته الخرائب من الخرائب، وتتعرف المامة على ذلك
السائس الهزيل الذي كانت تلتقط من راحته القش، إنه الآن مشنوق بِحُدُوء.. باللبائس، كان
رحيماً كالرغيف، وها هو يتدلى مهجوراً حتى من رفيق يرشّق موته بالصلوات والهديان. بعيداً
يتناثر الأطفال أكواماً فرائس الطعنات الأولى في الاقتحام الأول، والأقحوانة سترت عري المرأة
المستة بعد انحسار الثوب عن الركبة.

المامة تفرط في الأسي وتجدل جذور الغيمة جذراً جذراً لتحتشد في ردهاتها فلؤل المطر.
آن للمطر أن يحتل مواقع المجرة ويطهرها من الدم والجثث. وتربط الأفق بالأفق حتى لا يكون
هناك إلا فضاء لا يُحد، فيه تتعري المكائد.

ذلك الصياد الصبور ما يزال يتربص بين الشجيرات، يقنص الفضاء بأحداقه ويُدغدغ
ماسورة البندقية لئلا تغفو، ويتوالب من ضفة إلى ضفة ومن بيت إلى بيت ملتمساً حضور

الجمامة الشهية، وعندما يستند على حائطٍ رطبٍ يرفع قُرْبَتَهُ ويشرب، ثم يتفحص المكان بنظرانه المليئة بالقنص.

الجمامة تهبط لتستقر على سقف قوميدي وترنو الى زوجة فلاح تحمل بيدها دلواً فارغاً وفوق رأسها سلة مكتظة بالبيض، خارجة من الحظيرة ومتجهة صوب الدار. في الجانب الآخر يجلس الفلاح فوق مصطبة متكئاً على فأسه ويحدق في التربة مهموماً. يدنو منه شاب بخطى متثاقلة واضعاً يديه في جيبيه وحين يجاوره يرفع رأسه نحوه ويحدثه. الفلاح لا ينتزع بصره عن التربة كأنه لا يسمع. بعد وقت ينهض منتفضاً ويمضي على عجل مؤرجحاً الفأس بيده القوية بينا الشاب يرمقه في إشفاق ثم يتكس رأسه ويثقب الأرض بمخاضه. يعود الفلاح ممتطياً بغله ويتوقف بالقرب منه ويخاطبه بحنقٍ للحظة ثم يلكز البغل ليواصل سيره، الشاب يتبعه مهرولاً ويخاطبه محاولاً أن يشبه عن عزمه ولأن البغل تزداد سرعته فإنه يضطر إلى الجري وراءهما. تحلق الجمامة لتعرف أي جهة يقصدان. في الحقل جراحة تشوه التربة وتجرف المحاصيل. يترجل الفلاح ومهرع نحو الجراحة ملوحاً بفأسه. السائق يوقف المحرك لكنه لا ينزل بل يمكث محتماً بالآلة. يحتدم الجدل بينهما، وشيئاً فشيئاً يجبو الصراخ مع ابتعاد الجمامة التي تمضي إلى جهة أخرى. الصياد يتثاءب ويتحسس خديه. يعجب لأن الشعيرات صارت تنمو بسرعة في الأيام الأخيرة، وبالتحديد منذ أن شرع بالمطاردة. يفتح حقيبتة الجلدية ويخرج المعجون والفرشاة والمرأة وآلة الخلاقة. البندقية المتكئة على الحائط تحلّد للراحة، لو تسنى لها أن تتسلل هاربة لفعلت، فجميع رصاصاتها التي أطلقت طاشت بلا روية وهذا السيد الأرعن لا يُتقن غير انتقاء المخايء والتواري خلفها. لكن، في ساعات الغسق، حين يزيغ الجسد رداءه الشفيق عن الروح، يتناهى نشيج موجع وتعرف كم هو تعيس هذا الرجل، وإلى أي مدى مشروخة روحه. أما الآن فيصنّف مغتبطاً بينا يللم حوائجه وينتصب متطلعاً إلى الجهات المتقاطعة أمامه ثم يتناول بندقيته ويبدأ في التواثب من جديد.

الجمامة تسرح في المدى، ترافق قطعاً من الجواميس المدحجة بالأجراس وهي تجر الآبار إلى وادٍ غير ذي زرع، وحيناً تهدي رواراتأها إلى عشه. وتنزل في جرن توقظ صيباً وصيبةً يختطفان حقايبهما ويجريان صوب المدرسة المجاورة. تتبعهما الجمامة وعلى عتبة النافذة تقف وتراقب المدرس الذي يتباهى بسوط شقرات ابتكره البارحة، يستدعي تلميذا ويعري مؤخرته ثم يجلده بشراسة. يشد آخر من شعره ويلكمه على صدغه وفمه. ويوثق قدمي ويدي تلميذ آخر خلف ظهره بحبل ويعلقه في المروحة بعد ذلك يؤرجحه ويجلده. يولج بعنقٍ مقبض السوط في إسنت تلميذ... وعندما يثهكه التأديب يفتح الكتاب ويرجو منهم الهدوء ليبدأ في الشرح. تغادر الجمامة مبتعدة.

الصيدا يَدْخُلُ غابة مترفة بالأشجار والينابيع ويجرَح عوطتها بالفخاخ فتعدو الظباء
 متشحة بالفرع تحيك بأظلافها مركبات تطفو بعيدا عن الدسائس ، والصيدا يظل ينصب
 فحا هنا وفحا هناك ، تتبعه السحالي التي تحرب بابتهاج ما يفعله . بعدئذ ينحني جانبا
 ويُحصي ما ادخره من رصاص ، ولكي يراقب بشكل أفضل فإنه يتسلق شجرة دردار ويمكث
 بين الأغصان محتباً ، آنذاك يحظرُّ له أن يفاجيء الإمامة في دارها فيجتمع أشراكه ويصعد
 درجات الهواء ناثرا كإثنه في الفضاء هنا وهناك وعندما يسمع عواء خافتا ينزل بهمة ويقفز على
 الأعشاب ثم يركض نحو مصدر الصوت ليرى ثعلبا يرتجف في احتضاره بين الفخ يهزُّ رقبته
 ويخُنق عواه حتى يحمُد. ينحني الصيدا ويخلصه ثم يرفعه من ذيله ويطوحه بعيدا.

إمامة تمرَّغ منقارها في أمواج الهواء وتهب زَعْبها لأرجوحة في منزله . يد شاب تحتضن يد
 شابة ، يفرك جبينه في كفها كأنه يوسم جسده بجسدها . يسيران محتويين الأعمدة والأرائك
 في مُقْلتيهما ، يمسس في أذنها : أحبك . فتغمض بصرها في تحفر . يتعدان قليلا لكنهما
 يتوقفان فجأة هلعين من موكب محتقن يتقدم نحوهما . يتقهقران ملتفين حوالهما بحثاً عن
 طوق نجاة ، غير أن الجمع يطوقهما في دائرة تضيق وتضيق ولا تسمح سوى باستغاثة ضعيفة
 يحاصرها هتاف هادر . تجثو الإمامة عند مقعد حجري يجلس فوقه كهل ينثر فتات الخبز أمامه
 ليغوي البلابل كمي تحيء وتتخاطب معه . عينا أيها الكهل ، لقد نزحت مع لغات العشاق
 منذ أن طوت الحدائق جداوها وذهبت من غير رجعة . ثمعن في مرآة ذاكرتك لتبصر صور
 أحباتك الذين غادروك دون أن يتركوا عنوانا.

المطاردة تُنهك الخصمين . يعرفان أنهما لا بد أن يلتقيا كي يحسما الأمر . هكذا قررت
 الإمامة أن تواجه عدوها ، هكذا قرر الصيدا أن يضع حدا للاستنزاف والتقيا دونما مباغنة أو
 مكر .

الإمامة تنقُر الماء ، ربما هي القطرات الأخيرة، ثم تستدير لتتفرس في الصيدا مرتقبة في
 هدوء . الصيدا يحشو بندقيته برصاصه لن تطيش هذه المرة . ينظر برهة قبل أن يصوب
 البندقية . الفوهة مُسددة نحو القلب مباشرة ويكفي أن يضغظ على الزناد لينتهي كل شيء .
 المسألة سهلة جدا وقد فعلها أكثر من مرة . لكن ما باله في هذه المرة يتردد وأصابه ترتعش ؟
 لو أنها تُغمض عينيها ؟ لو أنها تستدير . والإمامة لا ترصخ لتوسلاته بل ثمعن في إرباكه
 بنظراتها الحادة الجسورة . وأخيرا يخفيض بندقيته ويستدير ببطء عائدا إلى المدينة . لقد لحت
 الإمامة في عينيه حزنا طاغيا .